القسم الثالث

مقالات

مقاهي القاهرة ودورها في تثقيف الرأي العام

إذا مـا أردنا تعريف المقهى عن طريـق لفظتي المفهوم والماصدق والعلل الأربعـة «المادية، الصورية، والفاعلة، الغائية»، وذلك للوقوف على ماهيتها أو حقيقتها أو طبيعتها والغاية من وجودها، فسوف يقودنا البحث الى الأصل اللغوي الذي أشتقت منه الكلمة، أي القهوة فقيل أنها مشتقة من أصل حبشي عُرفت فيه ثمرة القهوة كشراب منبة وهي مدينة «كّفا» وقيل أن اللفظة تعود لأصل عربي، وتعني ذلك المشروب الذي يمنع الإحساس بالجوع «أقهى».

وقد عُرفت المجالس التي يُقدم فيها مشروب القهوة بالمقاهي أو القهاوي، وقـد نقلها اليمنيون عن الأحباش الى مـصر في القرن الخامس عشر الميلادي ولم تكن بطبيعة الحال في صورتها الحالية.

وعليـه يمكننـا تعريف المقهى أنهـا مكان يجلـس فيه الناس، و يشـتمل عـلى ركن لإعداد المشروبات وموقد ومقاعد ومـآدب، وذلك يعبر عن علتها المادية والصورية، أما علتها الفاعلة فهي متباينة تبعاً لأمرين: أولهما الثقافة السـائدة وثانيهما التطـور التاريخي، فلـم تكن المقاهـي في العصر المملوكي والعثماني سـوى مـكان يتجمع فيه أصحـاب الحرف والصنائع ليتسـامرون فيه أو يتفقون مع شـيوخهم فيما يخص أمـور المهنة وفنون الصنعة، لذا نجد الأماكن الشـعبية شاغلة بمقاهي النجارين والحدادين والنقاشين والفخرانية

والسـقايين وغيرهم، وكانت المقاهي تضم أيضـاً الغرباء الذين لا مأوى لهم في القاهـرة والباحثين عن عمـل وكذا العُياء والشُـطار والفتوات والمدّاحين ورواة السيّر.

وقد اسـتحل الأزهريون الجلوس عليها لتناول القرفة والزنجبيل ولاسيّما المقاهي المجاورة لجامع الحسين والمتناثرة في أحياء الغورية والموسكي، وعليه تطـورت العلة الفاعلة للمقهـى وأضحت ملتقى للعـوام والمُعممين ومجالس للتثقيف وتبادل الرأي في شتى النواحي وجُل الأمور.

وكان كبير القهوجية يسمى «القهوجي باشا» وهو الذي يقدم المشروبات في المجالـس الخاصة التي يمكـن ان نُطلق عليها مقاهـي النُخب التي كانت تُنشأ في البيوت أو ملحقة بالقصور « قاعة أو مضيفة «.

وقـد لعبت المقاهـي دوراً كبيراً في تثقيف الرأي العـام الأمر الذي جعل منها إحدى منابر التوعية والإرشـاد التي تنطلق منها الدعوات وتتأسس فيها الجماعـات وتُعقـد فيها الأحـزاب وتُلقى فيها الخطب وتشـتعل مـن جنباتها الثورات والانتفاضات، فأضحى لها بذلك علة غائية.

وينـزع المؤرخـون الى أن عدد مقاهي القاهرة قد بلـغ 1200 مقهى قُبيل قدوم الحملة الفرنسية الى مصر كما أكدوا ان الأتراك هم الذين نقلوا صورة المقاهي المصرية الى الآسـتانة وليس العكس، وان الإنجليز والفرنسـيين قد نقلـوا أيضاً صـورة تلك المقاهي المصريـة عن اليونانيـين والإيطاليين الذين كانوا يترددون عليها في شـوارع القاهرة والإسكندرية ودمياط والسويس ورشـيد، و إذا ما صحت تلك الروايات تُصبح المقاهي بعللها الأربعة المادية والصورية والفاعلة والغائية مصرية.

واعتقـد أن العلـة الغائية للمقاهـي المصرية - وهي التـي تعنينا في المقام الأول - مـن حيث كونها إحدى آليات التنوير والتثقيف كان لها السـبق في ذلـك أي قبل مقاهي باريس ومنتدياتها، وتشـهد بذلك المجالس التي كانت تُعقـد في حوانيـت الوراقـين والنُسـاخ وتجار الكتـب في أخريـات القرن السـابع عشر، تلك التي كانت تجمع بين العلماء والحرفيين وشيوخ الطوائف والمُعممين من الأزهريين والأدباء والشـعراء والأطباء والمترجمين والصوفية والكيميائيين والفلكيين في القرن الثامن عشر.

وقـد اتخذت المقاهي في هذه الحقبة وفي ظل تلـك الثقافة صورتين أولهما المجالس الثقافية التي كانت تُعقد في القصور وبيوت الأعيان وكبار التجار، وكانـت معظم أحاديثها تدور حـول أحدث الكتب التـي حملها التجار الى مصر، أو بعض قضايا الأدب واللغة وأخبار الصوفية، والمستطرف في العلوم الحديثـة من رياضيـات وطب وهندسـة وفلك وجغرافيا، والمسـتظرف من أخبار المشـعوذين والسـحرة وكتب الجنس - التي ذاعت آنذاك - ذلك فضلا عن عقدهم جلسات نقدية شهرية حول أحدث الكتب المقتناه والمؤلفة.

والجديـر بالإشـارة ان تلـك المجالـس كانت تختلـف في بنيتهـا المعرفية وصورتها وطبيعة النقاش فيهـا عن مجالس العلم المتخصصة، وهي تلك التي كان يعقدهـا المتخصصون في اللغة والفقه والتصوف بُغية البحث والدرس، وهي مغايرة كذلك للحلقات المدرسية التي كان يعقدها المشايخ حول أعمدة الأزهر والمساجد الكبرى.

فالمجالـس التي نعنيها كانت أقرب الى المقهى من حيث جمعها بين العوام والأعيان والحرفيين والعلماء والمتخصصين في شتى الفنون والمتذوقين للشعر

والأدب، كما أن علة تلك المقاهي الفاعلة لم تكن بيع المشروبات بل كانت تقدم لروادها المشرب والمأكل دون ثمن، وكانت تتميز كذلك بالقدر الموفورمن حرية الفكر والنقد والتناول، فلا نكاد نلمح من بين روادها من يُنصّب نفسه أستاذاً أو معلماً بل كان التساجل والنقاش هو الذي يحدد قدر ومكانة المتحدثين ولم يكن لها أيضاً مقرر دراسي أو موضوع بعينه للدرس، بل كان حديث المترددين عليها وروادها هو الذي يقودهم لهذا الموضوع أو ذاك.

أما المقاهي التقليدية وهي الصورة الثانية فكان يغلب على مجالسها موضوعات الأدب الشعبي حيث إنصات العوام للشاعر المغني لسيرة أبي زيد الهلالي أو عنترة بن شداد أو مغامرات أحد الشُطّار المصريين أو نوادر جحا أو أقاصيص الرحالة، وكان القليل من رواد هذه المقاهي يستأجرون أحد طلاب الازهر ليقرأ لهم الكتب الأدبية والتاريخية مثل « ألف ليلة وليلة، الأغاني، أنيس الجليس، البخلاء، كليلة ودمنه» أو يعرضون عليه بعض المشكلات الاجتماعية المتعلقة بالأمور الشرعية ليفتيهم فيها، أو يكتب لهم مظلمة أو يحرر لهم عقد اتفاق.

ومن أهم المجالس العلمية «مجلس الفلكي» الذي أسسه السيد رضوان بن عبد الله أفندي عام 1701م، ومجلس «الشرايبي» الذي أسسه أحمد بن محمد الشرايبي وكان بمثابة مكتبة عامة يُطالع فيها طلاب العلم خزانة الكتب التي أعدها صاحب المجلس، ويُروَى عنه انه قد تأسس عام 1705م، وكان يوفر لطلاب العلم المأوى والمأكل والمشرب، و«مجلس الوفائية» الذي أسسه محمد بن يوسف بن عبد الوهاب الوفائي المُكنّى بأبي الأنوار وهو من أصل

مغربي آلت له بعد والده مشـيّخة السجادة الوفائية بالقاهرة في العقد الثالث من القرن الثامن عشر وهو امتداد لمجلس الوفائيين بالإسكندرية الذي ظهر في منتصف القرن السـابع عشر، و«مجلس الجبرتي» الذي أسسـه حسـن بن ابراهيم الجبرتي وهو حبشي الأصل ومصري المولد، عام 1741م، وكان يتسم بالطابـع العلمي وجمعه بين الحرفيـين وأصحاب الصنائـع والعلماء والأطباء والفلكيين والكيميائيين وهو أعرق مجالس العلوم العقلية والطبيعية ويرجع ذلك لاشتغال صاحبه بالطب والفلك، و«مجلس الزُبيدي» الذي أسسه محمد بـن عبد الـرزاق الحسـيني في النصف الأول مـن القرن الثامـن عشر، وكان يغلب عليه الطابع الأدبي واللغوي وكانت حلقاته تدور حول قضايا البلاغة والفصحى واللهجـات العامية وتنقيح المعاجم اللغوية التليدة، وقد تأسـس عام 1750م.

ومـن أطـرف المجالس آنذاك «مجلس نفيسـة المرادية» وقد تأسـس عام 1786م وهـو أول مجلس ثقـافي تقيمه إمراه وهي نفيسـة البيضاء زوجة علي بـك الكبير، وقد اجتمع في مجلسـها أصحاب الحرف والفنانـون والفلكيون والأطباء، وقد اسـتثمرت نفيسـة مالها في البحث العلمي، وقد تردد على هذا المجلس العديد من علماء الحملة الفرنسية.

ويمكـن ان نلاحظ من العرض السـابق للمجالـس العلمية وروادها عده أمور:

أولهـما: غلبة المسـحة الدينية الإسـلامية الأزهرية الأشـعرية الصوفية على البنية الثقافية لهذه المجالس مع تواجد متزايد للفكر الحنفي الماتريدي النقشـبندي، بالإضافـة الى وجـود ظـلال للفكـر الشـيعي الزيدي وسـيّما

عنـد بعض أعلام الطريقة الوفائية والخلوتية، من أمثال إسـماعيل الخشـاب والعيدروسي، أما الفكر الوهابي والسنوسي ومهدي السودان، فلم يجد وسط هذه البنية مكانًا.

وثانيهما: أن المجالس العلمية المتخصصة في العلوم الرياضية والجغرافية والطبية كانت محصورة في نطاق ضيق ويرجع ذلك الى قلة روادها وعزوف الأزهريين عنها وندرة المؤلفات فيها فيُعد مجلس الجبرتي وحسام الدين الهندي من أهم وأشـهر المجالس التي اضطلعت بنـشر الثقافة العلمية خلال القرن الثامـن عشر، الأمر الـذي يفسر إتهام الجبرتي لمعاصريه من شـيوخ الأزهر الذيـن اتصلوا بعلماء الحملة بأنهم غير مؤهلين لدراسـة هذه العلوم الحديثة، وذلك باستثناء من تتلمذوا في هذين المجلسين ومنهم الشيخ حسن العطار.

أما المجالس الحكمية المعنية بدراسة المنطق والفلسفة فكانت غائبة ولم تُعقد لدراسـتها سوى حلقات قليلة في مجلس حسـام الدين الهندي والجبرتي وعبـد الرحمن العريشي ثم الشـيخ حسـن العطار والشـيخ حسـن الطويل، ويرجـع ذلك الى تأثر شـيوخ الأزهر بفتوى ابن الصـلاح المناهضة للمنطق وسـلطة كتب الغزالي ولا سـيما «كتـاب تهافت الفلاسـفة» و«إحياء علوم الدين» و«المنقذ من الضلال» و«إلجام العوام عن علم الكلام»، ويعد حسن العطار بلا منازع مؤسس أول مجلس لإحياء التراث الكلامي ودراسة المنطق وكتب ابن سينا وكان ذلك مع بواكير القرن التاسع عشر قُبيل سفره الى أوربا عام 1802م.

وثالثهـا: عدم مشـاركة المسـيحيين المصريـين واليهود في هـذه المجالس، ويرجع ذلك الى المسـحة الدينية الإسلامية التي سادت موضوعاتها من جهة،

وانشـغال المتعلمين مـن اليهود والنصـارى في أعمال الجمارك برشـيد ودمياط والإسـكندرية، أو بجمع الجباية مـن الفلاحين في الريف والصعيد، أو العمل في الوظائف الإدارية تحت إمرة أمراء المماليك والبشاوات العثمانيين من جهة ثانية، وشعور اليهود والنصارى بالغربة والاضطهاد تحت وطأة تعصب المماليك والعثمانيين الذين فرضوا عليهم قيوداً في الملبس والمسـكن والامتلاك والتنقل، الأمـر الذي أخرجهم من دائرة المواطنة، وذلك عقاباً على مشـاركة بعضهم في التجسس للأجانب و إشعال الفتن وتزييف النقود وسرقة الجبايات.

ورابعهًـا: كمـون الخطاب السـياسي في بوتقة رجالات الطبقة الوسـطى المتطلعـين للسـلطة والانطلاق نحو الرأسـمالية الوطنية، فقـد آثر الجبرتي - وهومـن كبار الملاك الذين ينتمون للطبقة الوسـطى المبكرة - والسـيد عمر مكرم، وآل الشرايبي، والدمنهوري، والعيدروسي، والسادات، حصر النشاط السياسي لهذه الطبقة في تثقيف الرأي العام التابع ليسهُل تسييسه، وانضوائه تحت راية العلماء، وتجييشـه للحد من سـلطة واستبداد بكاوات المماليك أو الباشـا العثماني، وقد نجـح هذا الدور الى حد كبير، ولا سـيما بعد تملك نفر غـير قليل من مشـايخ البلد المصريين في الدلتا والصعيـد الأراضي الزراعية، وتزايد ثروات التجار المصريين في القاهرة والإسـكندرية ودمياط ورشـيد وطنطا، واشـتغال بعض رجال الأزهر بالتجارة والحرف وليس هناك أدل على نفوذ هذه الطبقة من رفضها لبعض قرارات المماليك وتوسطهم في المظالم بين العوام والباشـا العثماني من جهـة، وتلبية العوام لدعواتهم للثورة حتى تُجاب مطالبهـم من جهة اخرى، ومـن امثلة ذلك ثورة 1775م ضـد المماليك، وقد أثبتت كذلك ثورتي القاهرة الأولى والثانية ضد الفرنسيين قوة العلاقة التي كانت تربط بين العلماء والعوام.

وخامساً: أن الخطاب التوجيهي لهذه المجالس كان متعدد المستويات والأغراض، فقد كان يتخذ من النقد العلمي منهجاً عند مناقشة المصنفات والقضايا الفقهية واللغوية والأدبية، وكان ينحو منحى التفسير والتبرير الجدلي عند تصدية للقضايا الاجتماعية من العادات والتقاليد والأعراف والأمور الحياتية اليومية، وينتهج المنحى الوعظي الإرشادي بلغة سهلة في الصياغة، وتصل أحياناً للعامية، والارتكان الى الأمثال الشعبية والحكايات عند مخاطبة العوام الذين كانوا يتسللون الى بعض هذه المجالس أو جلسات المقاهي، وقد نجح المنحى الأخير الى حد كبير في الحد من التبشير المسيحي الكاثوليكي الذي كان يمارسه بعض قناصل الدول والتجار الأجانب، وأقرب مثال على ذلك تحول بعض المسيحيين عن المسيحية الى الإسلام ومنهم الشيخ محمد الحفني المعروف بالمهدي الفاضل 1815م، الذي ترك المسيحية واعتنق الإسلام فأصبح واحداً من أكبر الدعاة.

أما المقاهي الثقافية - التي أشرنا إليها - فهي لا تختلف عن سائر المقاهي من حيث ماهيتها وعلتها المادية وأثاثها وصورتها وشكلها وعلتها الفاعلة لكونها مكان تباع فيه المشروبات ويجلس على مقاعدها المتسامرون نظير مبلغ معلوم، بيد أن ما يميزها عن غيرها هو الطابع التثقيفي التنويري، إذ كانت تجمع بين أصحاب الرأي في الأدب واللغة والسياسة والاجتماع والتربية والعوام على اختلاف مشاربهم وطبائعهم، ولعل أشهر هذه المقاهي في القرن الثامن عشر هي تلك التي ذكرها الجبرتي في كتابه الأشهر «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» الذي أورد فيه شيئاً ليس بالقليل عما كان يحدث في المقاهي التي كانت تزخر بها أحياء القاهرة المحروسة، وعلى الرغم من ذمه جلساءها ولا سيّما أثناء الحملة الفرنسية، فنجده يشير الى بعض الأفاضل

مـن الأعيان والتجـار والأدباء والصوفية الذين كانوا يـترددون على بعضها، غير أنه لم يسـمي أسـماء هاتيك المقاهي، واكتفى بتحديد أماكنها، غير أن بعـض الكتابات التاريخية تؤكد ان أشـهر هذه المقاهي «مقهى الفيشـاوي» بحي الحسـين، الذي أسسه الحاج فهمي الفيشاوي، وكان يتردد عليه كثيرون مـن شـيوخ الازهر والأعيـان والتجار والعمـد والطـلاب المجاورين، وقد تأسست نحو عام 1797م.

وتعـد مقهـي «ميتاتيا» التي أُنشـئت في عهـد الخديو إسـماعيل نحو عام 1868م - تلك التي ترجع تسـميتها الى المهندس الإيطالي «ميتاتيا» الذي تولى تخطيـط ميـدان أزبك، الذي كان يضم سـاحتي الأوبرا والعتبة، اذ أنشـأ بها عـمارة كبيرة ضمت في طابقها الأرضي تلك القهـوة التي تعد من أكبر مقاهي القاهرة من حيث المسـاحة آنذاك - من أشـهر المقاهي التي كان يتردد عليها الأعيـان وأواسـط المثقفين مـن المطربشـين طـلاب دار العلـوم والموظفين والتجار والجنود والأدباء والشعراء والساسة، ولعل شهرتها لم تبلغ أوجّها إلا عقب اتخاذ جمال الدين الأفغاني منها مقراً لانطلاق دعوته الإصلاحية وآرائه حـول الخلافة العثمانية والجامعة الإسـلامية ومخاطر إهمال التراث الحضاري التليـد والتعلق بأذيال الغرب وتقليد عوائدهم نحـو عام 1875م، ذلك فضلاً عـن حديثه عن الحريـة والحياة البرلمانية وجمعية الحـزب الوطني الحر المُزمع تكوينـه - آنـذاك - والدسـتور وصحافة الـرأي ومقاصدهـا وتخليص كتب الأدب من الجرس البلاغي والوحشي من الألفاظ والتقعر في اللغة، أضف الى ذلك كله أحاديثه عن الفلسفة وعلم الكلام والاجتهاد وتجديد الفقه وتهذيب التصـوف وتطهيره من البدع والخرافات وضرورة توعيـة الرأي العام لمجابه الغزو الثقافي والمادي للبلاد الإسـلامية والثورة على كل قلاع الاسـتبداد.

وقد اجتمع حول حلقات الأفغاني التي كان يعقدها في قهوه «ميتاتيا « العشرات بل مئات المُريدين الذين لعبوا الدور الكبير في الحياة الثقافية في مصر والعالم العربي وعلى رأسهم تلميذه محمد عبده وعبد الله النديم و يعقوب صنوع وقاسم أمين وسعد زغلول وأديب إسحق ولطفي السيد ومصطفى كامل وأحمد عرابي وزكريا احمد وسلامه حجازي وعبده الحامولي وغيرهم، ومن شبيبة الصحفيين والأدباء والمغنيين والحرفيين، الأمر الذي جعل من هذه القهوة صرحاً ثقافياً تخّرج فيه قادة الفكر وزعماء الإصلاح في أخريات القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

وقد استحالت المجالس الثقافية التي ظهرت في القرن الثامن عشر الى الصالونات الأدبية ولعل أشهرها صالون الأميرة «نازلي مصطفى فاضل» ذلك الذي كانت تعقده بمنزلها الكائن بالناصرية بحي عابدين نحو 1884م، وكان يتردد عليه المفكرون الأتراك والإنجليز والفرنسيون بجانب شيوخ الأزهر وعلى رأسهم الإمام محمد عبده بعد عودته من المنفى، وتلاميذه من أمثال قاسم أمين وسعد زعلول وطلعت حرب ومحمد فريد وجدي و يعقوب صروف وجورجي زيدان ومريم مكاريوس ومريم مطر، وكانت تناقش فيه قضايا الدين والسياسة وحرية المرأة وقضايا النهضة والتعليم.

وقد انتشرت الصالونات الفكرية في قصور الأعيان وبيوت قادة الفكر وأعلام السياسة ومن اهم هذه الصالونات صالون «عائلة عبد الرازق بعابدين» الذي تأسس عام 1884م، وكذلك صالون « مي زيادة « الذي تأسس نحو 1910م، وصالون «هدى شعراوي» الذي تأسس عام 1914م، ذلك فضلاً عن المجالس الثقافية التي كانت تُعقد في دور النشر مثل دار الجريدة ودار اللواء ودار المؤيد ودار المقتطف ودار الهلال.

ولا ننسى مقر الجمعيات الأدبية التي لعبت نفس الدور التثقيفي، وعلى رأسها دار لجنة التأليف والترجمة والنشر والمجمع المصري للثقافة العلمية ودار الكتب المصرية والجمعيات الخيرية التي كانت تجمع بين الرعاية الاجتماعية والنهضة العلمية الثقافية.

أما دور المقاهي الثقافية فلم يتوقف وبقيت قهوة «ميتاتيا» هي الرائدة في هذا الميدان إذ اتخذها محمد عبده وتلاميذه - ثانيةً - مقراً لتربية الرأي العام، وتقويم أفكاره وتهذيب أخلاقه و إصلاح عوائده وشحذ همته، وقد نجحت كذلك في تشكيل عقلية الطبقة الوسطى على اختلاف اتجاهاتها وعلى كراسيها جلس قادة الأحزاب ورؤساء تحرير الصحف المصرية.

ومن أهم المقاهي التي سلكت نفس المسلك في النصف الأول من القرن العشرين مقهى «ريش» الذي تأسس عام 1908م بشارع طلعت حرب، وترجع تسميته الى الفرنسي «هنري ريسن»، وقد تميز المقهى بجمعه بين الثقافة السياسية والأدبية وأعلام الفن والغناء أمثال صالح عبد الحي وام كلثوم وغيرهم من الذين أحيوا أمسياته، وكذلك مقهى الحرية المعروف بقهوة المشايخ ومقهى قشتمر وغيرها من المقاهي التي حدثنا عنها وروادها الأستاذ عيد عبد الحليم في كتابه القيم «حكاية قهاوي الصفوة والحرافيش».

ولمّا كان الذي يعنينا من الحديث عن المقاهي الثقافية هو الدور التنويري والإصلاحي للمجتمع المصري فخليقٌ بنا أن نشير الى أهم القضايا التي طُرحت على مآدب هذين الشكلين من أشكال المقاهي الثقافية - أعني المجالس والصالونات والمقاهي العامة - تلك التي يمكن تلخيصها في «التراث والتجديد، العامية والفصحى، اللغة والفكر، الحروف العربية واللاتينية،

ترجمة القرآن، التقليد والاجتهاد، العادات والعبادات، الدين والمجتمع، الحضارة الشرقية والثقافة الغربية، الانتقاء والتبعية، القومية والوطنية، الحرية والفوضى، النقد والاجتراء، الحب والشهوة، السفور والحجاب، الإيمان والإلحاد، الديمقراطية والفاشية، حقوق المرأة وتعدد الزوجات، والمساواة بين الجنسين، إصلاح التعليم وقضايا الشباب»، ذلك فضلاً عن المساجلات التي نشرتها الصحف ثم انتقلت أصداؤها ومناظراتها الى المقاهي، نذكر منها «الثقافة والحضارة، الوحدة العربية والرابطة الإسلامية، الأسلوب والمضمون، النقد الذاتي والموضوعي، التجديد والتبديد، الدين والعلم، النقد والتفريط، الطربوش والقبعة، الحرية والتبعية، صحافة الرأي وصحافة الحياد، الأدب للفن والأدب للمجتمع، الاشتراكية والليبرالية، البغاء والانحراف الجنسي، المخدرات والخمور، الجن والعفاريت، وتحضير الأرواح»، وغير ذلك من دروب الفكر.

ويمكننا ايجاز سمات الفكر المصري الحديث الذي أنتجته تلك المقاهي في في تلك الخصائص:

أولها: الاقتداء بالغرب دون تبعية أي انتحال المنهج والنظريات دون المذهب وذلك برؤية نقدية تحليلية تهدف في المقام الأول مصلحة مصر، والعمل من أجل تمصير الوافد من الثقافة والأدب ومع ذلك لم يسلم الأمر من وجود التيار التغريبي العلماني، وعلى رأسه شبلي شُميّل وسلامة موسى وشاهين ماكاريوس ومحمود عزمي وحسني العرابي.

وثانيها: قوة الوازع الديني ووسطية الإسلام والتسامح العَقدي وقد تحقق ذلك بفضل مدرسة الإمام محمد عبده، التي تمثل الاتجاه المحافظ المستنير.

وثالثها: المحلية والنزعة العملية، فلم يكن الهدف من دراسة الآخر ونقد التراث العربي التليد سوى التأليف بينهما لإيجاد حلول واقعية للمشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

رابعها: التوازن والموضوعية في طرح الرؤى، ويبدو ذلك بوضوح في تلك الخطة الإصلاحية التي سعت كل التيارات الفكرية لتطبيقها في شتى نواحي الحياة على الرغم من تباين اتجاهاتها الحزبية والسياسية.

وخامسها: حرية البوح والتسامح الفكري، ويظهر ذلك في عشرات المساجلات التي كانت تدور بين رواد الصالونات والمقاهي حول شتى قضايا الفكر والعقيدة بدايةً من قضية الإيمان والإلحاد ومروراً بقضية الانتماء والولاء وانتهاءً بقضايا السياسة والأدب والتاريخ والفن، ذلك فضلاً عن مشاركة اليهود والمسيحيين والمستشرقين الغربيين والماسونيين في الحوارات والمساجلات.

سادسها: ثنائية الفكر، فعلى الرغم من اجتهاد الاتجاه المحافظ المستنير في التأليف بين الأفكار إلا انه لم يستطع التخلص تماماً من الثنائيات مثل « التراث والتجديد، الأصالة والمعاصرة، الحكومة المدنية والحكومة العلمانية، الرابطة العرقية والرابطة الدينية، السفور والحجاب«.

وسابعها: التواصل والثراء، لقد نجحت الصالونات والمقاهي والمجالس الفكرية في تدعيم العقل الجمعي وتزويده بالأفكار وسُبل تطبيقها، الأمر الذي ربط الطبقة الوسطى المستنيرة بالسلطة الحاكمة من جهة، وأواسط المثقفين والعمال والحرفيين والتجار والجنود من جهة أخرى، الأمر الذي ساهم مساهمة كبيرة في توحيد الرأي العام وتجييشه من أجل

النهـوض والإصلاح وعـلى الرغم من غيبـة الفلاحين عن مـسرح الأحداث إلا أن أبناءهـم كانـوا ينقلون إليهـم أفكار النخب وليـس أدل على ذلك من ثـورة 1919م، وذلـك الترابط والتآلـف الاجتماعي بين البشـوات المصريين والفلاحـين في القرى والنجوع، اذ كانـوا يجتهدون في تقديم إليهم الخدمات الصحية والتعليمية والاقتصاديـة وذلك عن طريق الجمعيات الخيرية وبناء المستشـفيات والمدارس والملاجئ وإرسـال البعثات الى الخـارج على نفقتهم الخاصـة، وكسر الحاجز الطبقي بين النخـب المصرية وأبناء الفلاحين وذلك عن طريـق المصاهـرة وإشراكهم في تطبيـق أفكارهم التنويريـة، اذ كان معظم قادة الفكر من أصول ريفية قد مكنتهم طبقة البشـوات المصرية من الاشـتراك في الـوزارات والوظائـف العليا للدولة، وقد تواصـل بذلك النظر والعمل وارتبطت النظريات بالتطبيق.

وثامنها: التآلف والتناغم، فعلى الرغم من ثراء الحياة الثقافية التي أنتجتها المقاهـي مـن رؤى وأفكار إلا أننا يمكننـا إدراج تلك الثوابـت التي وضعها العقل الجمعي لها، فنجد الحكومات الحزبية تسـير على خط تصاعدي يقدم مصلحة مصر على دونها ويطبـق الخطط الإصلاحية التي ترمي الى النهوض والتقدم وبنفس القدر من المسـئولية، نجد سلوك الموظفين والتجار والعمال والفلاحـين والفنانين والصحفيين والممثلين والمثّالـين ورجال الشرطة، الكل يسـير في منظومـة واحدة، ويعـزف لحناً واحـداً رغم تنوع آلاتـه وتوزيع الأدوار المتناغمـة مع اللحن الأسـاس. أجل ان ذلك الـدور التنويري الذي لعبتـه المقاهـي الثقافيـة مازلنا نفتقـده الآن في مؤسسـاتنا ومنابرنـا الثقافية ومنتدياتنا الأدبية، ولم يبق من ذلك الدور سـوى بضع صالونات قد أصيبت جُلها بآفات ثقافة العقل الجمعي المعاصر التي تعاني من الشيفونية والاستبداد

بالرأي، وتفتقر الى أدب الحـوار، وضوابط طرح الرؤى والخطابات والدقة في التقصي والروية في الحكم، والتسـامح مع الأغيار، والابتعاد عن التعصب للمذاهـب والنظريات، وفـن التواصل مع العوام، ومع الأسـف أن مقاهينا الآن باتت أماكن للهو واللعب والتسكع والرقاعة والمجون.

فهل لنا أن نحلُم بعودة ما كان، و إعادة البناء من جديد؟؟؟